قصيدة النثر

حظيت قصيدة النثر كظاهرة شعرية مستجدة من حيث النوع الادبي باهتمام الشعراء ، في محاولة منهم لاستقصاء البعد الجمالي والوقوف ازاء تجربة تجديدية من شأنها استشراف شيء من الايحاء الدلالي ، إذ شكّلت تمردا على السياق الخارجي للشعر ، وذلك عبر كسر الاعراف اللغوية في القصيدة والتوجه نحو ابتكار لغة جديدة وصور ودلالات مبتدعة وصولا الى ادخال اللغة المحكية، مما يحيل المتلقي الى التتبع الدلالي والاستقصاء الجمالي الذي يوحي بتداعيات الشاعر التي تمنح العمل الابداعي بعدا ايحائيا، بما يحمل من تمظهرات تستدعي التحليل والتفكيك ، اذ ان القراءة بوصفها عملية تأويلية تسعى الى مقاربة النص ، اعتمادا على المستوى الثقافي والفكري للقارئ ، اذ تتحكم الطبيعة القرائية لديه في تعامله مع النصوص ، ويتولد من جراء هذا الامر فعل المشاركة القرائية الذي يمنح القصيدة الانفتاح الرؤيوي من جهة ، والبعد الدلالي المكثف من جهة اخرى عن طريق تتبع بواعث الاثر الشعري .

وربما تكون اشارة (سوزان برنار) الى كون (قصيدة النثر تنطوي على مبدأ فوضوي وهدام ، اذ نشأت من التمرد على قوانين الوزن والعروض واحيانا على القوانين العادية للغة) ، ايضاحا لمزايا القصيدة النثرية من حيث الشكل الخارجي ، الذي يتصف باختراق المثالية الشعرية وانتهاك الصياغة النسقية المألوفة . ويمكن عد هذه المحاولة – قصيدة النثر – محاولة ابداعية تأصيلية لا تعتمد على ازاحة السابق كما يصفها البعض، وانما هي تمثل جانبا ابداعيا تجديديا حاول الشعراء فيها بلورة الشكل الخارجي للقصيدة ووضعه في قالب شعري جديد ، فالشاعر من حيث انه يستخدم اللغة استخداما نوعيا لكنها تقتصر على تفسير النبوغ في النشاط اللغوي بوجه عام، وانما في كيفية النسج التركيبي القائم على تشكيل المعنى المراد من بنية اللغة بطريقة تعتمد على الصياغة برؤية وموقف مانحان للاستضاءة الشعرية ، وذلك ما يجعل من قصيدة النثر تجربة استيعابية وتجديدية في ان واحد ؛ فهي استيعابية من حيث ارتباطها بالصور والمعاني الشعرية ، وتجديدية من حيث الكسر النمطي لشكل القصيدة الخارجي من جهة وجرأة الطرح المرتبط بفك الدلالة الشعرية من جهة اخرى ، وهذه سمة العمل الشعري الذي يشكل الملمح التجديدي ، وان قوبل بآراء تعسفية تفضي الى نكران شعرية النثر بعيدا عن الوزن والارتباط العروضيّ . اذ قدمت قصيدة النثر رؤى جديدة في قضايا عاشتها الانسانية في كل الازمنة والامكنة ، وما تزال تعيشها ، واستطاعت من خلال هذه الرؤى الجديدة ان تمتلك خصوصيتها وان تقدم مسوغ كتابتها ، وهذا لا يعني انها عالجت موضوعات لم تعالجها الانواع الاخرى ولكنها استطاعت ان تواكب الحركة الشعرية بسمة

مواكبة لما هو مألوف في الطرح الموضوعي ، ومن ثم محاولة التفرد في الابداع الصياغيّ المرتبط بجوهر القصيدة وان خلت من ملامح الشعر المرتبط بالوزن والقافية ، ولعل هذا الامر يقودنا الى معرفة مدى قدرة النبرة الإبداعية التي اشتغلت عليها قصيدة النثر في الولوج الى المجال الشعري ، وتمكنها من الثبات والتأصل ، وقد عدت في نظر مريديها واحدة من الخطوات المهمة في اتجاه الحداثة في الشعر ، وهي سالكة للجانب الابداعي في التعويض عن الوزن والقافية والتركيز على عناصر جمالية اخرى مكنتها من الابتعاد عن حالي التماهي بين النثرية والشعرية ، واستطاعت ان تأخذ الحيز الشعري المنفرد الذي اتسمت به بوصفها(قصيدة) نثر بعيدا عن الارتماء في جنس ادبي بوصفها جزءا منه ، وانما هي نوع جديد ؛ وذلك بما حملت من ارتقاء مرتبط بالمستوى الفني الذي تحقق عن طريق الايحاء الشعري ، اذ هو (خطاب شعري يستطيع الشاعر من خلاله الدخول الى عوالم خيالية ترفد نصه بقيم جمالية تبعده عن الوقوع في فخ المباشرة والتقريرية اللتين تجعلان من النص الشعري فاقدا لسمته الجمالي) ، وهذا ما منحها القدرة على استيعاب المتلقي ، اذ لبعض النصوص القدرة على استشفاف المراد من العملية الابداعية وهذا الامر متعلق بقابلية القارئ على المشاركة في انتاج الدلالة ، ومن الامور المسلم بها ان التعمية والفوضى المقصودة هي سمة تشد المتلقي الذي يكون تعلى مستوى عال من التجاذب الفكري مع الشاعر للنصوص المحتملة لهذه الدلالات المتعددة ، وليس كما يريدها القارئ الملم بشيء من المشاركة في اضاءة النص وفك رموزه ، وهذا ما اعطى القصيدة النثرية معلما ذاتيا تتصف به عن غيرها من الاجناس الشعرية التي سبقتها ، فهي محاورة فعلية للعلاقة التآصريَّة بين المبدع والمتلقي .

ولا بد لنا ونحن نقارب فصاحة قصيدة النثر في مكنونات نوعها الادبي ان ننطلق من ماهية الايقاع الذي ينبني فيها من اجل رسم ملامح فضاء التشكيل الصوتي الذي يتحقق عبر التواصل الايقاعي للنص ، اذ له الدور الكبير في تحفيز القابلية الشعرية على الولوج الى العالم الشعري المتخيل . ولا بد من الاشارة الى اهم الاجزاء التي تعطي للجانب الموسيقي السمة المميزة في خلق الايقاع ، والتي تتجلى في :

١. التركيب اللغوي حين ينتظم في انساق من الموازنات والتقطيع.

٢. التكرار وفق اشكال موظفة لتأدية الدلالة .

٣. التوزيع والتقسيم على مستوى القصيدة وبهدف صياغي محدد .

٤. التوقيع على جرس بعض الالفاظ المعجمية والموازاة بين حروفها .

وعلى وفق ما تقدم يمكن القول : لقصيدة النثر قابلية استيعابية بعيدة عن المحايثة النصية (مع اللغة اذ انها تحاول تحطيم اللغة التقليدية للغة الشعر ، وتحاول اعادة بنائها لتصنع لغتها الشعرية الخاصة ، وقد وجهت اهتمامها الى الافادة من الامكانات المتوافرة في المجاز فعرضت ما سمي بتوتر اللغة الشعرية او تفجيرها ، واقامت نظامها على البناء المنفعل في الاستعارة والمجاز والاسناد المجازي) ، وبهذا المرتكز الي استندت اليه قصيدة النثر من تجدد في الطرح الرؤيوي المنسجم مع المتلقي الحاذق ، والتحرر من ربقة القيد العروضي والاستعاضة بالمدلول الايحائي استطاعت ان تخلق وتؤسس بل وتؤطر وجودها بماهية الخطاب الشعري الابداعي بما يكتنف من معان شعرية وبذا تكون المعنى الشعري الموازي للنغم التفعيلي في الانواع الشعرية التي سبقتها ، وكان لدور الشاعرية المؤثرة لدى كبار كتابها الدور الاساسي في كونها منحى تطويريا للقصيدة الشعرية .